نهاية المثقف؟

ملف من إعداد: محمد جمال باروت

تعبير «نهاية المثقف» تعبيرٌ جديد وَفَدَ إلى الثقافة العربية من الغرب ومن مدرسةٍ ما بعد الحداثة تحديداً، التي تقول بنهايات عديدة، تحتقب القوميةَ والاشتراكيةَ والجغرافيا والسياسة. وما تقول به هذه المدرسةُ يطرح إشكاليةً خاصةً بالمجتمعات ما بعد الصناعية في الغرب، الأمر الذي يطرح على قضية «نهاية المثقف» في الوطن العربي أسئلةً خاصة، تميِّز القضيةَ، في تمييزها للواقع العربي، الذي كلما اقترب من الحداثة من جهة معينة، ارتدّ عنها من جهات متعددة أخرى.

وواقع الأمر أنّ المثقف العربي بدأ السير نحو نهايته منذ هزيمة حزيران الشهيرة، التي دشّنتْ هزيمةَ المشروع الحداثي العربي كله. فمع هذه الهزيمة، بدأ في الظهور مثقفٌ عربي يمارس نهايته، مستجيباً، عن وعي أو من دونه، لسياسات السلطة العربية المسيطرة. فلقد أخذ هذا المثقفُ الجديد بأمرين يوافقان تطلّعاتِ السلطة السياسية وأغراضها، أولهما: الفصل بين الثقافة والسياسة باسم «الاختصاص المعرفي» و«نقد الإيديولوجيا»، حيث يصبح دورُ «المفكر» إنتاجَ المعرفة على مسافة من «العوام»، بقدر ما يصبح دورُ السلطة السياسية ممارسةَ السيطرة والقرار على مبعدةٍ من الرعية. وثانيهما: الأخذُ بمنظور تلفيقي للثقافة، يمزج «القطيعة المعرفية» بمعطيات التراث، ويدافع عن «عالمية الثقافة» من ناحية، مبشِّراً بالخصوصيات الإقليمية والطائفية والجهوية من ناحية أخرى.

ومع أنَّ أطروحة «نهاية المثقف» تقول بموت «المثقف الإيديولوجي»، فإنّ تأمل ممارسة «المفكّر الجديد» تبيّن أنه مثقف أيديولوجي من نمط جديد. ذلك أنه يبشِّر، بدوره، بجملة أفكار توافق الواقع العربي المعيش. كما لو كانت «نهايةُ المثقف» المقصودةُ خاصةً بمثقفٍ هزمته حربُ حزيران الشهيرة، وعليه أن يخلي مكانه لمثقف جديدٍ مقلوبٍ، يَخْلط بين العلم والهزيمة والتلفيق والاختصاص، ويمزج بين نقد الخطاب الوطني وممارسة الثقافة كملكية خاصة.

وبالتأكيد فإنّ السؤال المطروح لا يرتبط بسياق سياسي ــ اجتماعي معين فحسب، بل تضاف إليه عناصرُ موضوعيةٌ جديدة، ليس آخرَها هيمنةُ التلفزيون واتساعُ الوسائل الإعلامية التي لا تقدم معارف جديدة بقدر ما تخلق عقولاً متناظرةً ضعيفةَ المحاكمة. وفي الحالات كلها فإنّ هذا الملف، الذي تقدمه الآداب عن المثقف وموته وولادته المحتملة، يطرح أسئلة أكثر مما يقدم إجابات. حَسبُهُ أنه يسعى الى توليد الأسئلة وتأملها أكثر مما يطمح إلى إعطاء إجابات ناجزة ومغلقة، الأمر الذي يجعل هذا الملفَّ مفتوحاً، غايتُهُ الحوارُ والاقترابُ الجزئي من بعض الوضوح، اتكاءً على صوتٍ ثقافيٍ جماعيٍ لا يدَّعي احتكارَ الحقيقة.

فيصل درّاج